MARINA MESOPOTAMICA 20(1):233-252 2005

أثر الهجرة القسرية على البناء الاجتماعي لسكان الاهوار

محمد محمود إبراهيم، عدي بجاي شبيب
مركز أبحاث الأهوار – جامعة ذي قار

الخلاصة

تعتبر بيئة الاهوار بجانبيها الاجتماعي والطبيعي بيئة فريدة من نوعها لعدة اعتبارات موضوعية ومنطقية مما جعل لسكانها افرادا وجماعات ميزات وخصائص تختلف عن سكان البيئات المجاورة لها في الريف والحضر. ولقد ساهمت هذه البيئة في بلورة ثقافات فرعية خاصة بها تتكون من نسيج العادات والتقاليد والاعراف والقيم التي تؤمن بها وتتفاعل معها. لكن بقاء هذه البيئة مغلقة على نفسها لفترات طويلة وعدم مواكبتها للتغير الاجتماعي الذي كان يحصل في الريف والمدينة باستمرار جعل منها مصدرا رئيسيا للتخلف الاجتماعي من خلال التنشئة الاجتماعية الخاطئة واجترار الافكار البالية وتفشي ألامية واستعمال الوسائل البدائية في التربية والمعيشة والسكن. ولقد وجدت المجتمعات التي كانت تسكن في أعماق الاهوار نفسها وعلى حين غرة في مواجهة مجتمعات تختلف عنها نوعا ما أو بنسبة كبيرة جدا في التوجهات وفي التعامل مع مفردات الحياة بعد ان نزحت هذه المجتمعات الهورية على شكل امواج أصطدم الجزء الاكبر منها بالقصبات والحواضر المحاذية للاهوار بعد القرار الاكثر غباءا في التاريخ والقاضي بتجفيف الاهوار في عام 1993 فلم يكن بدا من الهجرة القسرية بعد ان أجدبت الطبيعة وغابت مظاهر الحياة. ولأن النزوح كان عشوائيا فقد حشر المهاجرون الجدد انفسهم في الاحياء الضيقة والفقيرة والتي كانت تشكو أصلا من نقص فاحش في الخدمات ألاساسية ولاشك فأن هؤلاء قد أثرو وتأثروا بسكان المناطق التي نزحوا

اليها في مختلف الانساق الايكولوجية و الاقتصادية و القرابية والثقافية التي يتكون منها مجمل البناء الاجتماعي لأي مجتمع في العالم. ويحاول هذا البحث أن يسلط ألاضواء على ما أفرزته هذه الهجرة من نتائج بعد مرور أكثر من عقد من الزمان عليها.

اولا – مشكلة البحث :-

يعتقد الباحثان ان الهجرة المفاجئة والعشوائية لسكان الاهوار الى المدن والقصبات المجاورة البعيدة قد احدثت خللا في البناء الاجتماعي لمجتمعاتهم وللمجتمعات التي هاجروا اليها.

ثانيا– اهداف البحث:-

يأمل الباحثان من وراء دراستهما هذه تحقيق مجموعة من الاهداف التي يمكن اجمالها بالاتي :-

1- احياء البحث السوسيو- انثروبولوجي لبيئة الاهوار التي افتقرت لأية دراسة موضوعية منذ خمسينات القرن العشرين.
2- محاولة دراسة التغيرات التي حدثت على البناء الاجتماعي لسكان الاهوار ولسكان المناطق المهاجر اليها بعد النزوح الاضطراري الذي حدث اثر التجفيف.
3- محاولة الاستفادة من اخفاقات ونجاحات التجارب السابقة التي حاولت الاسهام في انتشال سكان الاهوار من واقعهم المتخلف.
4- محاورة الاسئلة الاتية:

أ- من الممكن تحويل بيئة الاهوار الى بيئة صالحة للابداع ؟

ب-ما هي الطرق العلمية والموضوعية المناسبة لعودة الاهوار؟

ج- هل أسهمت الهجرة في تغيير نمط التفكير التقليدي لسكان الاهوار الى نمط متحضر؟

ثالثا- صعوبات البحث:-

واجهت الباحثين مجموعة من الصعوبات كان ابرزها عدم تعاون العينات الخاضعة للدراسة بصورة تامة مع عدم الحصول على مخبرين جيدين وصادقين بسهولة وصعوبة الحصول على البيانات بسبب الفوضى التي تعم الدوائر بالاضافة الى فقدان العنصر الامني مما جعل الزيارات الميدانية التي كان يقوم بها الباحثان لمناطق الاهوار لا تخلو من اخطار حقيقية.

رابعا – اهمية البحث:-

تتجلى اهمية هذه الدراسة من اهمية المشكلة التي تم تحديدها لما للبناء الاجتماعي من اهمية كبيرة وواضحة في تقدم او نكوص أي مجتمع في العالم. وتتضح هذه الاهمية بصورة اكبر اذا ما عرفنا ان هذه البيئة ظلت مهملة ومهمشة لفترات طويلة من الزمن مما يجعل من ضرورة دراستها امرا غاية في الاهمية.

خامسا- المجال المكاني:-

يمكن تحديد هور السناف مجالا مكانيا للدراسة كما يتم تحديد مدينة سوق الشيوخ لهذا الغرض، اذ كان الاول مناطق طاردة للسكان بينما كان الاخر مناطق جاذبة حينما استوعب الموجات النازحة بعد التجفيف التي استقرت في احياء الشهداء والصلبة و7 نيسان والحي العسكري.

سادسا- المجال الزماني:-

تعتبر الفترة الزمنية المحصورة بين الاعوام 1993 - 2004 مجالا زمنيا لهذه الدراسة.

لقد واجه المهاجرون الجدد مشكلات حقيقية بعد فترة وجيزة على استقرارهم في المناطق الجديدة وفي مجمل أنساق البناء الاجتماعي واذا كانت هذه المشكلات قد ظهرت في الانساق الايكولوجية والاقتصادية في باديء الامر فأن الثقافة ما لبثت ان شكلت معوقا من معوقات التكيف الاجتماعي ومصدرا اخرا من مصادر الخلل التي اثرت في الانساق القرابية والعشائرية. وسنحاول هنا ان نتفحص التغير الذي طرأ على هذه الانساق والكيفية التي واجه بها المهاجرون التحديات الجديدة .

أولا- ايكولوجيا :-

وجد المهاجرون أنفسهم يعيشون في وسط ايكولوجي مختلف تماما عن الوسط الذي كانوا يعيشون فيه وقد حاولوا الحصول على منازل متجاورة في نفس الاحياء التي استقروا فيها ولقد ساعدتهم المبالغ التي حصلوا عليها جراء بيعهم لجزء من ماشيتهم او تلك التي حصل عليها البعض من عمليات السلب والنهب لوحدات الجيش بعد انهزامه في حرب الخليج الثانية ولمستودعات الاسلحة الضخمة في منطقة الخميسية في الحصول على الوحدات السكنية التي اختاروها والتي كانت تفتقر في اغلبها لابسط مقومات العيش الصحي والامن مقارنة بالاسعار العالية التي دفعت بها والتي أغرت أصحابها بتركها والعيش في مناطق اكثر تحضرا. وبما ان اغلب هذه المساكن لم تكن مساحته تتجاوز المائة والخمسين مترا مربعا فقد بدا لأصحابه الجدد مقنعا إذا ما قورن بأكواخهم القديمة في الهور. إلا إن الفضاء المحيط بهذه المنازل كان يبدو أضيق افقآ من فضاء الهور الذي كانت تتلاشى فيه الحدود وتختفي الحواجز وعليه فقد اعتقد هؤلاء أن الشوارع والساحات العامة

يجب ان تستغل، وهكذا صارت الارصفة المحاذية لهذه المنازل مرابطا للماشية، واذا ما عرفنا ان هذه الاحياء كانت تعاني من نقص فاحش بل انعدام شبه تام للكثير من الخدمات البلدية الضرورية جدا أدركنا مدى الفوضى التي حلت بهذه الاحياء مع قدوم المهاجرين.

ولقد كان هؤلاء افضل حالا من سكنة احياء من سكنوا في بيوت الصفيح التي انشئت على عجل وسط تخبط عشوائي واضح. ولقد ساهمت هذه الاحياء مع الاحياء الاخرى في تاهيل المدينة لكي تصبح مصدرا للاوبئة والامراض التي اضحت فيها امراض التايفوئيد وحمى مالطا والتهاب الكبد الفيروسي والزحار والصرع الحراري للاطفال والعديد من امراض الجهاز التنفسي والهضمي الاخرى تنتشر بسرعة فائقة خلال عقد التسعينات والتي اودت بحياة الكثير من السكان وكان لتلوث الماء والهواء النصيب الاوفر في احداث هذه الامراض. كما ان الكثير من امراض الحيوانات اصبحت تؤثر في صحة الانسان عن طريق تناول لحومها أو من خلال الطرق التقليدية البعيدة عن ابسط الشروط الصحية التي كان يحضر بها المهاجرون منتوجاتهم من الحليب ومشتقاته التي يبيعونها في السوق. ناهيك عن كتل الذباب والبعوض التي كانت تجوب المدينة من جراء ركام القاذورات التي صارت تغطي الساحات والارصفة.

ولأن هؤلاء السكان كانوا يجهلون الكثير من الشروط الصحية للسكن فقداهملوا تماما ضرورة التقيد بالتهوية والاضاءة وأنظمة الصرف الصحي مما جعل مساكنهم تمتاز بالظلمة والرطوبة والروائح الكريهة الامر الذي انعكس سلبا على صحة الانسان وبالاخص الاطفال وكبار السن منهم. ناهيك عن زحمة السكن في الدار الواحدة اذا انحشرت العوائل الممتدة التي يتراوح اعدادها بين (12-18) شخصا في دار واحدة.

لقد ازداد سكان مدينة سوق الشيوخ من (50,322) شخصا في تعداد عام 1987 الى (72,734) شخصا في عام 1997 اي بزيادة قدرها (22,421) شخصا"

خلال عشرة اعوام فقط واذا ما عرفنا ان عدد السكان الذين تركوا المدينة وهاجروا خلال هذه المدة فاق الـــ(5000) شخص ادركنا مدى الزيادة في الكثافة السكانية الي احدثها المهاجرون في مقابل تردي وانتكـــاس فـــي الخـــدمات الحكوميـــة يقابلـــه نكوص في المسيرة الاجتماعية (وسط تخبط ثقافي وعشوائية في الافكار محاط بحصار اقتصادي مزدوج يحكم المجتمع الدولي احدى حلقاته بينما تمارس الحكومة الحلقة الاقوى منه ويجري ذلك كله تحت مراقبة صارمة مشفوعة بحـــالات قمـــع واضطهاد تفوق التصور تمارسه جيوش من الاجهـــزة الامنيـــة والاســـتخباراتية والحزبية في آن واحد).

ثانيا- اقتصاديا :-

لم يستطع السكن في المدينة ان يقدم تطمينا لحاجات المهاجرين الاقتصادية أذ بد أو يشعرون بعد فترة وجيزة بخلل واضح في الميزان الاقتصادي الذي بدأ يحكم حلقاته المميتة منذ منتصف عام 1992. ولقد ادى الوضع الجديد هذا بالمهـــاجرين الى الانخراط بطرق جديدة للكسب خاصة وانهم لم يستطيعوا التكيف مـــع الحيـــاة الاقتصادية في المدينة .

1) هجرات العمل:-

وهي الهجرات التي كان يقوم بها جزء من العائلة او افرادا منها للعمل فـــي المحافظات الغربية (كركوك و الرمادي و تكريت) بصورة رئيـــسية والـــى محافظات الفرات الاوسط (النجف والحلة وكربلاء) بصورة ثانوية. وكانت بعض العوائل تشطر نفسها الى نصفين، يذهب كل جزء بعد ان يؤوب الاخر ولم تكن الاعمال التي يمارسها المهاجرون محددة فهي تجمع بين الاعمـــال الزراعية ورعي الماشية وحفر الابار واعمال البناء والاعمال الخدمية، ولم تكن هذه الهجرات مقتصرة علـــى ســـكان الاهـــوار الـــذين نزحـــوا الـــى المـــدن بل كانت تشمل شرائح كبيـــرة من مجتمعات الناصرية والبصـــرة

والعمارة وبالاخص منهم سكان الريف الذين كانت تتهددهم مجاعات حقيقية منذ بداية عقد التسعينات.

ولقد اسهمت هذه الهجرات الهجينة في خلق مشكلات نفسية واجتماعية أذ كان المهاجرون يلاحظون الفوارق الشاسعة بين مناطقهم التي تحولت الى صحراء مجدبة بفعل فاعل وبين المناطق التي يعملون بها فضلا عما كانوا يتعرضون اليه من تمييز طائفي وطبقي، الامر الذي كرس مشاعر الحقد والكراهية عند هؤلاء الذين صاروا يعتقدون أن ما أقتطع منهم أعطي لغيرهم، على الرغم من أن الجميع أبناء لوطن واحد ومن المفترض أن يكونوا متساوين بالحقوق والواجبات. ولقد وضعت هذه الفوارق التي كانت ترسمها السياسة الرعناء لحكومة البعث حدودا نفسية وأجتماعية تحولت بعد سقوط هذه الحكومة الى نعرات طائفية وعنصرية أصبحت تهدد الوحدة الوطنية.

2) تجارة الاسلحة:-

لقد اسهم الغموض الذي كان يكتنف بيئة الاهوار في تحويلها الى وسط جيد وآمن لنقل السلع المهربة بشكل عام والاسلحة ومتعلقاتها بشكل خاص منذ العقود الاولى من القرن العشرين. ولقد راجت هذه التجارة عبر هذه البيئة بين ثلاثة اسواق رئيسية هي (ايران والسعودية و العراق). الا ان الحرب العراقية الايرانية 1980 – 1988 وسعت كثيرا في هذه التجارة أذ كانت اهوار شرق دجلة تزخر بالفيالق المتراصة والوحدات الساندة لها التي كانت تزود طلب التجار المتزايد على الاسلحة على الدوام. واذا كان سكان الاهوار (او بالاصح بعضهم) يعملون اجراء لصالح تجار محترفين يستقرون في المدن والارياف فأن البعض الاخر بدأ يدرك ما تدره هذه التجارة من ارباح طائلة فقرر الخوض فيها، الا ان هؤلاء ظلوا محدودين يحتكرون العمل في هذا المجال ويتحملون التبعات الكبيرة من جرائه الا ان عقد التسعينات المجدب اضطر أو سمح للكثيرين من سكان الاهوار القدماء

بالعمل في هذه التجارة كوسطاء (دلالين) بصورة كبيرة وتجارا صـــغارا او كبارا بصورا أقل. ولقد البلدات والمدن التي تقع على اطراف الهور القـــديم والتي اصبحت تستوعب سكانه الذين هاجروا اليها كالقرنة والعمارة وسوق الشيوخ مراكزا تجارية واسعة للاسلحة. ولم يكن العمل في هذه التجـــارة يخلوا من مخاطر كبيرة اذ كانت عرضة لمتابعة ومطاردة الاجهزة الامنيـــة ولقد تعرض الكثير من العاملين فيها للاعتقال مرات عديدة .

3) مخلفات الحرب:-

الا ان تجارة الاسلحة ولدت تجارة اكثر خطورة عمل بها بصورة رئيـــسية سكان الاهوار، تلك هي تجارة تجميع الخردة والاسلحة المدمرة والقـــذائف غير المنفلقة والاعتدة المطمورة تحت ركام مستودعات الخميسية الـــضخمة واكداس العتاد التي تركتها قطعات الحرس الجمهوري بعد حرب 1991 في غرب وجنوب غرب مدينة سوق الشيوخ وكان أخطرها ذلك الـــذي يتعلـــق بالاسلحة ذات الطبيعة التدميرية الشاملة الذي ادى الى ظهور حالات كثيـــرة من سرطان الدم والحنجرة والرئتين. كما كان العمل الذي يتعلق بتجميع مادة النحاس الموجودة في ظروف القذائف الكبيرة والمتوسطة ذا مخاطر مميتة اذ كان يتوجب على العامل ان يقدم هذه الظروف فارغة مـــن محتواهـــا مـــن القذائف وفي مرات كثيرة تنفجر القذيفة في وجه صاحبها وفي الفترة بـــين الاعوام 1994 – 1996 أستطعت أن احصي ثلاث حوادث مؤسفة حـــدثت للمهاجرين الذين كانوا يرتادون المخازن المشار اليها، في الحادثة الاولـــى قتل تسعة اشخاص مرة واحدة وفي الثانية قتل ثلاثة وجرح خمسة اخـــرون وفي الثالثة قتل اثنان وجرح ستة اشخاص. كما اني اســـتطعت أن احـــصي اكثر من خمسين حالة عوق كلي او جزئي في المناطق المحاذيـــة لمخـــازن الخميسية خلال عقد التسعينات فقط.

4) تجارة المخدرات:-

لقد ظهرت مع تجارة الاسلحة التي كانت تتم بين أهوار شرق دجلة والاهوار الجنوبية تجارة جديدة، تلك هي تجارة المخدرات التي نمت وتطورت بسرعة للفترة بين الاعوام 1994 – 1997. ولآن المجتمع العراقي لم يألف تناول المخدرات فقد أصبح مجرد طريق عبور بين منتجيها في مناشئها عند المثلث الذهبي الواقع بين افغانستان والباكستان وبين متناوليها أو مروجيها في الاردن والسعودية واقطار الخليج عبر تجار ايرانيين ثم اخرين عراقيين في المناطق المحاذية لهور الحويزة مثل كرمة علي والدير والعزير والقرنة وقلعة صالح والكحلاء والعمارة. ولقد عمل بعض من سكان هور السناف الذين كانوا يستقرون في سوق الشيوخ بهذه التجارة إذ كانوا ينقلون سلعهم بين تجار أهوار شرق دجلة وبين تجار الصحراء الذين يستقرون في مدينة السماوة. ولم تثن فتاوى التحريم التي ظل يصدرها رجال الدين بأستمرار ولا حتى قساوة العقوبات الجزائية التي تصل الى الاعدام هؤلاء عن العمل بهذه التجارة بعد ان لمسوا الارباح الكبيرة التي يحصلون عليها في ظل وضع اقتصادي يسير من سيء الى أسوء ينعكس بصورة رئيسة على الطبقات المسحوقة التي كانت تشكل النسبة العظمى من سكان جنوب العراق بألاخص. للمدة بين الاعوام 1995 – 2000 أستطعت أن احصي عشر حالات اعدام بينما اعفي عن ثمانية اخرون بعد ان لم يبق بينهم وبين الموت سوى دقائق معدودة وكان جميع هؤلاء من سكنة هور السناف المهاجرين الى المدينة .ومع ذلك فلايمكن النظر الى ان تجارة الاسلحة والمخدرات ومخلفات الحرب تجارة مقتصرة على سكان الاهوار حصرا فقد عملت به جهات مماثلة في قرى ومدن عراقية من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب حتى صارت شبكاتها المعقدة تدار مركزيا من العاصمة بغداد.

5) أعمال متفرقة أخرى:-

لقد انخرطت النسبة العظمى من سكان الاهوار في العمل في مجالات عديدة أخرى لمواجهة التحديات التي وقفت في طريقهم بعد التجفيف والنزوح ومن هذه الاعمال تربية الماشية والاتجار بها والهجرة للصيد في البحيرات التي ظهرت في الصحراء بعد تحويل مجرى نهر الفرات. كما عمل اخرون في مجال الزراعة بعد ان خصصت الحكومة سلفا زراعة بسيطة لفلاحة اراضي الاهوار المجففة تكريسا منها لجريمة التجفيف من جهة ولطمس معالم الجريمة من جهة اخرى . لكن اعمال الزراعة هذه تعرضت لانتكاسات كبيرة لعدة اسباب منها ان سكان الاهوار غير مزارعين اصلا وثانيا عدم توفر مقومات الزراعة الناجحة من ماء وتربة واسمدة والات حرث وتعديل وحصاد.

لقد شهدت السنوات الاخيرة تغيرا ملحوظا في نمط المناشط الاقتصادية لسكان الاهوار الذين نزحوا الى المدن اذ حاول الكثير منهم الانصهار في الاعمال التي تناسب الحياة في المدينة كالعمل على سيارات الاجرة ومحال البقالة بينما استثمر البعض الاخر منهم ما توفر لديهم من اموال في شراء العقارات وفي المقاولات الصغيرة واعمال الصيرفة ومع كل هذا التغير الا ان نسبة كبيرة ظلت على تواصل مع البيئة الام خاصة بعد العودة الجزئية للاهوار فاصبحت العوائل التي تمارس نظام (العزبة) تشطر نفسها الى نصفين اذ يستقر احدهما في الهور لرعي ماشيته بينما يبقى النصف الاخر في المدينة التي ربما له اعمال فيها ايضا. ويستقر اغلب الذين عادوا الى الاهوار فوق السدة الامنية التي شقتها اجهزة النظام السابق في اعماق هور السناف والتي تنطلق من سوق الشيوخ نحو الجنوب الشرقي وقد ابتنى هؤلاء (شكوصهم) فوقها وهم يمارسون العمل الميداني الى جانب ماشيتهم.

ثالثا – ثقافيا:-

لقد شكلت الثقافة محورا لجميع الانتكاسات التي حدثت في نسقي الأيكولوجيا والاقتصاد اللذين تطرقنا لهما ولنسقي القرابة والعشيرة اللذين سوف نتناولهما لاحقا. وبدون ادنى شك فأن الثقافة التقليدية المغلقة لسكان الاهوار وقفت عائقا حقيقيا امام تكيفهم مع الحياة الجديدة في المدينة واذا كان المجتمع المحلي في مدينة سوق الشيوخ يعاني اصلا من عملية (تخلف حضاري) نتيجة الفجوة التي ظلت تفصل بين خطي الحضارة، المادي المتسارع والمعنوي المتباطيء، إذ ظل اغلب سكان هذه المدينة يحملون الافكار التقليدية التي اعتنقوها في قراهم التي هاجروا منها في عقدي السبعينات والثمانينات فأن سكان الاهوار كانوا اكثر اصرارا على التمسك بالعادات والتقاليد والقيم والاعراف التي تعودوا عليها هناك والتي اصبحت جزءا رئيسا لايمكن إقتطاعه من الثقافة العامة لهم.

لقد وضعت الفجوة الثقافية التي كانت تفصل بين سكان المدينة والمهاجرين الجدد جدارا منيعا امام عملية التكيف الاجتماعي جعلت المهاجرين ينطوون على انفسهم في باديء الامر لكنهم ما لبثوا ان تمسكوا بتراثهم الثقافي بقوة وحاولوا ان يفرضوه على مضيفيهم الامر الذي احدث حالات من القلق النفسي وشرخ واضح في النسيج الاجتماعي اذ ظلت محاولات التكيف بين الطرفين تارة ومحاولات ضم كل طرف للاخر تارة اخرى تقف عاجزة امام عمليات الصد والتهميش التي يواجه بها سكان المدينة ضيوفهم الجدد من جهة وعمليات التمادي في فرض الواقع الثقافي المتخلف الذي جاء به سكان الاهوار من جهة اخرى.

وعمليا فقد تحولت الثقافة الى سلوك اجتماعي معيش واضحى القانون العرفي الاكثر قدما والاقل اتصالا بالحياة الحضرية يعمل بقوة وهكذا صار من الممكن ان تعتاد على العيش وسط الاشتباكات التي كانت تحصل في الشوارع

بالايدي والهراوات نهارا أو بهجومات مسلحة في الليل كما كان من المعتاد جدا ان تشاهد ممارسة الطقوس الاجتماعية التي اعتاد سكان الاهوار ممارستها في الهور وكانت صفات التسرع والتهور والفظاظة والسذاجة تطغي على معظم تصرفاتهم وصار من المستساغ سماع مختلف الالفاظ النابية والشتائم. وتواصلا مع الحياة العشوائية ظل هؤلاء يفترشون الارضية في مجالس سمرهم او في عرض بضاعتهم حتى تحولت الى ثقافة عرض متداولة لأصحاب المحلات القديمة.

لقد استغلت اجهزة امن النظام السابقة سذاجة هؤلاء وضعفهم في تشغيل بعضهم عملاء سريين او ما كان يعرف محليا (وكلاء أمن) وكان هؤلاء ينقلون الصغيرة والكبيرة عن ابناء جلدتهم خصوصا لهذه الاجهزة التي كانت بعيدة كل البعد عن امن الوطن والمواطن ، وكان وكلاء الامن يقدمون في اغلب الاحيان تقارير كيدية للايقاع بخصومهم الذين يكونون في بعض الحالات اخوانهم وابناء عمومتهم ونتيجة لهذه التقارير اعدم الكثيرون وأعتقل اخرون لسنوات طويلة بينما شرد البعض الاخر. ولقد ولدت ثقافة (وكلاء الامن) هذه حالات من المنازعات والخصومات العشائرية والقرابية وزرعت حالات من عدم الثقة والاطمئنان بين سكان المدينة و بين المهاجرين الذين لصقت بهم هذه (الوصمة الاجتماعية) دون وجه حق في الكثير من الحالات.

وبعد سقوط النظام في عام 2003 وما رافقه من انفلات امني شامل ، سمحت ثقافة سكان الاهوار المتردية لبعضهم وخاصة الاجيال الشابة في تشكيل عصابات تمارس عمليات السلب والنهب وقطع الطرق الا ان ذلك لا يشير اطلاقا الى وصمة اجتماعية اخرى تلحق بسكان الاهوار حصرا إذ عملت الثقافات المتردية لأصحابها من سكان القرى والمدن في مختلف انحاء العراق في ممارسة أعمال السلب والنهب والاختطاف وهو مؤشر خطير جدا ينذر

بعواقب وخيمة أذ لم توضع خطط ناجحة لمقاومة هذه الثقافة الغريبة عن المجتمع العراقي.

وهكذا نجد ان مفردات الامية والتخلف والجهل قد اسهمت الى حد بعيد في الامساك بزمام ثقافة الاهوار ومنعتها من الخروج من ربقة التردي والنكوص. ولقد ساهمت هذه المفردات ايضا في تشكيل دوامة بأضافة عنصري الفقر والمرض التي ادت الى ظهور حالات جديدة من السلوك الاجتماعي المنحرف، واذا ما وضعنا مقياسا للمقارنة بين ثقافة سكان الاهوار المهاجرين وبين ثقافة سكان المدينة المهاجر اليها وجدنا ان الاولى قد اثرت في الثانية بصورة اكبر من تأثرها بها وهذا يتضح وبصورة جلية في الثقافة التقليدية التي اصبحت تغزو المدن في ظل انتكاسة كبيرة لثقافة التحضر في المجتمع العراقي والتي نكصت على عقبيها في بعض الحالات الاكثر سوءا الى ثقافة اوائل القرن العشرين. ومع اكثر حالات التشاؤم فأننا لا نستطيع ان ننكر التغيرات التي حدثت في ثقافة المهاجرين من سكان الاهوار والتي نحن بصددها في هذه الدراسة خلال السنوات الاخيرة. ورغم ضالة هذه التغيرات فلربما بعد عقد من الزمن سوف يقطف المجتمع ثمارها.

رابعا– قرابيا:–

استمرت العلاقات القرابية على منوالها لدى مهاجري الاهوار في الكثير من صورها السابقة الى حد ما. لكن رياح التغيير التي مست الانساق الاخرى قد مست ايضا النسق القرابي وبالخصوص تركيبة العائلة وحجمها ووظائفها. فعلى الرغم من ان العوائل الممتدة والمركبة كانت قد حشرت نفسها في دار ضيقة واحدة كما اسلفنا فأن السنوات الاخيرة شهدت الكثير من حالات الانشطار والاستقلال وهي حالات صحية رغم النقص الكبير في مقومات بناء العائلة المستقلة، لكن الزيادة الغير منظمة في الولادات لازالت ساريا ومن خلال تحديدي لعينة عشوائية في عام 2004 ضمت ثلاثين عائلة استقلت بعد عام 1996 على شكل عائلات نواة كانت

تحتوي كل واحدة منها على الزوج والزوجة وطفل او طفــلان او لا، فوجــدت ان اثنتا عشرة عائلة انجبت اربعة اطفال في حين انجبت سبعة عائلات منهــا ثلاثــة اطفال وخمسة عائلات انجبت طفلان وخمسة عائلات اخرى انجبت طفل واحد في حين لم تنجب العائلة الاخيرة اي طفل.

أن الفترة التي تقارب الثمان سنوات بين الاعوام 1996 – 2004 التي اســتقلت فيها هذه العائلات ادت الى حالات انجاب كبيرة وصلت عند اثنتي عشر عائلة منها اربعة مواليد اي بمعدل طفل واحد في كل سنتين وهذا غير مقنع بل مقلق في ظــل عدم توفر الغذاء الجيد والعناية الصحية الملائمة للمرأة الحامل وفي غياب مقومات تنشئة الاطفال وتربيتهم الامر الذي يعني اعداد اجيال جديدة مــن الاميــين الــذين ينضوي الكثير منهم بعد فترة في السلك المنحرف من المجتمع بعد ان تغلــق فــي وجوههم ابواب العمل والامل. وبملاحظة بسيطة اثناء التجوال اليومي في الــسوق تصطدم بأفواج من الاطفال الذين هم دون السن القانوني للعمــل الــذين يقــودون عربات الدفع الصغيرة او يحملون الاكياس التي يحتاجها المتسوقون او يفترشــون الارصفة عارضين بضاعتهم من اجل سد جزء من احتياجات عائلاتهم الكبيرة. الا ان عمل الاطفال ينطوي على مخاطر جمة فهو يعني ايضا ترك المدرسة واغــلاق القنوات الفاعلة في تكوين الشخصية التي توفرها ساعات اللعب والرفقة في مراحل الطفولة وبالتالي فهو الضياع بكل ما للكلمة من معنى الانه يسهم بصورة كبيرة في انحراف الاحداث وتشكيل وصياغة مشاعر الحقد والكراهية لديهم ضد المجتمع التي تتحول الى عمليات هدم في بنائه بعد ان يمتلك هؤلاء الاطفال مقومات الهدم مــن قوه بدنية وتطور في القدرات العقلية. وتعتبر ظاهرة عمل الاطفال المبكر الذي هو دون السن القانوني المحدد عالميا للعمل ظاهرة خطيرة جدا انتشرت في المجتمــع العراقي منذ اوائل عقد التسعينات وتقتصرِ هذه الظاهرة على سكان الاهوار لكــنهم ربما يشكلون نسبة كبيرة في هذه الظاهرة.

ان تحول الكسب من ايدي الاباء الى ايدي الابناء افقد العائلة أحد اهم وظائفهـا الا وهي الوظيفة الاقتصادية فبدلا من ان تشبع العائلة حاجات ابناءها الاقتصادية قـام الابناء وخاصة الصغار منهم بهذه المهمة التي اخرجتهم ايضا عن سـلطة الابـاء تدريجيا حتى اصبح الاب الذي لايعرف شيءا عن ابنه خلال ما يقـارب العـشرة ساعات يوميا لايستطيع ان يتابع مسيرته الاجتماعية والثقافية وبذا فقـدت العائلـة الوظيفة التربوية ثم انفرط عقد هذه الوظائف تباعا بعد ان عجـزت العائلـة عـن تطمين الحاجات الدينية والجنسية لابنائها.

خامسا- عشائريا :-

ظل النظام العشائري محافظا على كيانه الى حد بعيد عند المهاجرين، اذا لم يجـد هذا النظام ما يقلقه بعد ان صار ضروريا لاغنى عنه في عقد التسعينات بعـد ان فقدت الدولة شرعيتها القانونية وضعفت اجهزتها التشريعية والقضائية الـى ادنـى درجات الوهن في الوقت الذي اعتمدت نظام المشيخة السيء الصيت للسيطرة على المجتمع الذي فقدت اخر حلقات الوصل معه بعد احداث عام 1991 وهكذا نقل سكان الاهوار انظمتهم القبلية معهم الى المدينة وصارت الحالات التي تتصل بذلك مثـل النزعة العشائرية والعصبية القبلية والانصهار في بوتقة شجرة النسب تعمل بقـوة وصارت المكاتب الخاصة بشؤون الشيوخ تدار من اقرب اقرباء رأس الدولة فـي الوقت الذي كان العالم المتمدن يخطو خطوات واسعة وواثقة نحو أعلـى درجـات التحضر والرقي عشية أحتظار قرن وولادة قرن آخر.

وهكذا صارت مفردات (الكوامة والدكة والعرضة والفزعة وطيحـة العكـال والحشم والفصل والسودة وطعن المرأة بخنجر صدأ ... الخ) تعمل بقوة في قلـب المدينة وعلى بعد أمتار معدودة من دوائر القضاء والشرطة بعد أن تخلت الدولـة تماما عن واجبها في حماية المواطن وصار همها الاول والاخير ينحصر في حماية رأسها والرموز المتصلة به وكان الوضع العام يشير أيضا الى أنتكاس كبيـر فـي القيم العشائرية القديمة التي أدعى البعث المقبور أنه جاء ثائرا عليها قبل خمسـة

وثلاثين عام وأذا كانت حالة النكوص هذه وقد شملت شـرائح واسـعة جـدا فـي المجتمع العراقي فأنها كانت تتمثل بأعلى درجاتها في المـدن والبلـدات الفقيـرة والمحاذية للاهوار.

ولقد اسهم النظام العشائري التقليدي الفج في تشتيت الولاءات ليس عند ابنـاء الهور فحسب بل عند سكان القرى والبلدات والمدن في عموم البلد مما أدى الـى ضعف الشعور بالولاء للوطن ولم يقدم هذا النظام للمنضوين تحت قيمه أي أنقـاذ حقيقي أثناء الحصار الجائر مما يشير الى أنه نظام متهالك أعادته للحياة في الزمن الخطأ سياسات البعث الرعناء التي تقوقعت أحلامها من وحدة الامة الـى سـلطة القرية (العوجة).

النتائـــج

وتقود الدراسة الى مجموعة من النتائج العلمية الموضوعية والدقيقة والتي يمكـن أجمالها بألاتي:-

اولا- أن الهجرة التي أعقبت تجفيف الاهوار فـي عـام 1993 كانـت قـسرية، أضطرارية بعد أن فقد السكان هناك أي أمل لهم في التعايش مع البيئة التي حدث فيها انقلاب تام.

ثانيا- كان التجفيف جريمة منظمة أنتجت مجموعة من المشكلات المعقـدة التـي اضرت بالبيئة بجانبيها الطبيعي والاجتماعي.

ثالثا- كان جرم الحكومة مركبا في أحداث النزوح من خلال عمليات التجفيف اولا ومن خلال العمليات المتعلقة بالمطاردة والاضطهاد والاعتقال والقتـل والتغييـب لسكانها ثانيا.

رابعا- على الرغم من حصول هجرات الى مناطق أخرى الا أن النزوح الحقيقي والكبير كان نحو المناطق المحاذية للهور.

خامسا– من الممكن جدا تعميم نتائج هذه الدراسة التي تحددت مكانيا بسكان هور السناف الذين هاجروا الى مدينة سوق الشيوخ حيث شكلت مناطقهم الاولى مناطق طاردة للسكان في حين شكلت الثانية مناطق جاذبة لهم. على جميع المدن والقصبات والبلدات والحواضر الملاصقة لبحيرات ومستنقعات الاهوار في جنوب العراق كالبصرة وكرمة علي والقرنة والمدينة والهوير والدير والعزير وقلعة صالح والكحلاء والمشرح والمجر والميمونة والسلام والناصرية وكرمة بني سعيد والجبايش والفهود.

سادسا– حدوث نوع جديد من الهجرة يمكن ان نطلق عليه (الهجرة المركبة) بعد أن أضطر قسم من المهاجرين الذين أستقروا في المدن الى الهجرة مرة ثانية الى مناطق أبعد جغرافيا مما أدى الى أنشطار العائلة الواحدة الى قسمين أو ثلاثة أقسام متباعدة والى ظهور حالات من مشاعر العداء والكراهية بعد أن لمس هؤلاء المهاجرون الفوارق الشاسعة بين مناطقهم التي كانت تعاني الفقر والفاقة والعوز والتصحر وبين المناطق المهاجر اليها. ناهيك عما كان يلاقونه من سوء معاملة أنطوت على مكامن طائفية وعنصرية تأججت جمرتها بعد سقوط الحكومة مما ساعد على ظهور نوع من الصراع الخفي أخذ يهدد بتفتيت الوحدة الوطنية.

سابعا– لقد أخلت الهجرة القسرية في البناء الاجتماعي لسكان الاهوار ولسكان المناطق المحاذية ويمكن أجمال مؤشرات هذا الخلل بالنقاط التالية:–

1) أن محاولة مط الجانب ألايكولوجي في المدينة ليتلائم مع متطلبات المهاجرين الذين لم يستطيعوا التخلي عن مفرداتهم الايكولوجية التي اعتادوا عليها في الهور، قد انتجت نظاما بيئيا فوضويا ومتخلفا.
2) المساهمة في إحداث اكتظاظ سكاني خانق في المدن والقصبات في ظل غياب شبه تام للخدمات الضرورية.
3) انتشار الكثير من الأمراض والأوبئة التي أودت بحياة الكثيرين أو شلت قدراتهم الجسدية والعقلية الى حد كبير.

4) ارتباك واضح في النسق الاقتصادي ادى الى انخراط المهاجرين في اعمال خطرة كالاتجار بالاسلحة ومخلفات الحرب والمخدرات.
5) تعرض العديد من هؤلاء للمطاردة والاعتقال والحبس والاعدام نتيجة عملهم بالنشاطات الاقتصادية المشار اليها مع حدوث الكثير من حالات الوفاة والعوق الجزئي والكلي.
6) حدوث نوع من الفجوة الثقافية الحادة بين المهاجرين وسكان المناطق المهاجر اليها ادى الى انكفاء كل طرف ثقافيا على نفسه مما عرقل عملية التكيف الاجتماعي بين الطرفين الامر الذي ادى بدوره الى عداء مبطن وعدم ثقة كل جانب بالاخر.
7) ادت عملية تهميش سكان المدينة للمهاجرين ثقافيا الى تمسك هؤلاء واولئك بانماطهم الثقافية التي اعتادوا عليها مما خلق نوع من الفوضى الثقافية.
8) ظهور نوع من الصراع الحضاري على اثر التصادم الذي حدث بين القيم والاحكام الاصيلة والاخرى الدخيلة لدى كل طرف من اطراف المشكلة مع فشل واضح وصريح في عملية التكيف الثقافي.
9) ساهمت عمليات الاضطهاد الفكري والتهميش الثقافي والظلم الاجتماعي التي لحقت بسكان الاهوار منذ عقود طويلة في احداث نوع من الخلل في تركيبة الشخصية التي امتازت بالخضوع والاستسلام للطرف القوي ومحاولة مهادنته حتى لوكان ذلك على حساب المباديء.
10) ساهمت الثقافة المغلقة عند سكان الاهوار في ابقائهم يدورون في الدوامة المحكمة الحلقات والتي تمثلث بالامية والجهل والمرض والفقر والتخلف.
11) قبول البعض من سكان الاهوار في العمل مخبرين سريين (وكلاء أمن) لدى اجهزة النظام المقبور ادى الى ظهور نوع جديد من الوصمة الاجتماعية التي لحقت بمجتمعاتهم.

12) الزواج المبكر وعدم الالتزام بنظام التخطيط العائلي ادى الى ثورة في المواليد في ظل عدم توفر الرعاية الصحية والاجتماعية للامهات والاطفال وغياب الخطط والبرامج التي تتكفل بتربيتهم وتنشئتهم.
13) عزوف الكثير من المهاجرين عن تسجيل ابنائهم في المدارس الابتدائية وعدم السماح لمن تجاوز هذه في اكمال المتوسطة والثانوية ادى الى خلق اجيال جديدة من الاميين.
14) العمل المبكر للاطفال دون السن القانوني والموجود لدى ابناء المهاجرين بصورة ملحوظة قاد ويقود الى انتشار انواع مختلفة من انحراف الاحداث.
15) عدم قدرة العائلة على القيام بتأدية وظائفها التي كانت تقدمها لاعضائها سابقا ادى الى زعزعة سلطة الاباء وظهور حالات من التمرد عند الابناء تمخضت بمجملها عن انواع معقدة من التفكك العائلي.
16) شعور الاجيال الشابة من المهاجرين بالضياع وعدم ضم المجتمع المدني لهم مع وجود البطالة ساهم في تشكيل عصابات من قطاع الطرق والسراق التي قامت وتقوم باعمال السلب والنهب والخطف والسطو المسلح.
17) تحول النظام العشائري من نظام يحافظ على ابنائه الى نظام مصلحي هجين يعمل لصالح اجهزة الدولة.
18) تهافت الافراد والجماعات على التمسك بالنظام العشائري رغم مساوئه بعد غياب شبه تام للسلطات القضائية والجزائية منذ بداية العقد الاخير من القرن العشرين.

المصادر

البياتي، علاء الدين. 1975. علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق. مؤسسة الاعلمي، بيروت– بغداد ص435- 262.
سليم، شاكر مصطفى. 1970. الجبايش. أطروحة دكتوراه منشورة، مطبعة العاني، بغداد، 830 ص.

منظمة حقوق الإنسان. 2003. تقرير (عدوان الحكومة العراقية على عرب الاهوار– دراسة للإحاطة).

Firth Raymond, Human Types (An Introduction to social Anthropology) Reviewed Edit., Toman and Son ltd, London, pp:73-75.

THE IMPACT OF FORCED MIGRATION ON SOCIAL STRUCTURE OF ARAB MARSHES

M. M. Ibrahim U. B. Shibeeb
Marshes Researches Centre – Thi-Qar University

ABSTRACT

The Marsh environment is considered a unique both naturally and socially, and this imposed different features and characters of its dwellers from those of the neighborhood environment of both the villages and towns . Therefore the forced migration of the marsh Arabs to the other areas had impacts on the economic, cultural, environmental and relational aspect of the new areas.